داود

وذهب الرُّوع عن القوم ، وزال كابوس العِمْلاق ، وانتصر هؤلاء ، وانكسر هؤلاء ، وأقبل طالوتُ على داود ، يضمه إليه ، ويبارك عليه ، ويُتوِّجه بتاج النصر ، ويزوِّجه ابنته ، ويجعله خليفةً على الملك من بعده .

ولمع اسم داود .وسطع نجمه ، وتعلق الشعب به ، والتفُّوا حوله ، وتنادَوْا بزعامته ،وأصبح مِلء أسماع الناس وأبصارهم ، وهم عن طالوت منصرفون .

* * *

وعَمِلَت نظرية تنازع البقاء عَمَلَها ، وغريزة الغيرة ، تُطفئُ أضواء الحب ، وعينُ الحسد ترمى بالشرر كلَّ ذى نعمة .

كان ذلك بين الملك طالوت ،وبين داود زوج ابنته ، وولى عهده ، وقاتل عدوه ، ومُنقذ شعبه !

والملكُ بأبَّهته وصَوْلته ، يخشى داود أن يخلعه من عرشه ، وأن يُواريه ، ويُرخى الأستار عليه .

فسوَّلت لطالوت نفسهُ ، أن يقذف بداود ، فى ميدان حربٍ جديد ، لعل حظه يخونه ، فلا يعود ؛ فبعثه إلى قبائل كنعان ، الغلاظ الشداد .

وذهب إليهم داود ، وبدأهم بالحرب ، وأعْمل فيهم السيف والضرب ، وردَّهم على أعقابهم ، وأمَّن الدولة من أخطارهم ، وعاد إلى طالوت ، يحمل أعلام النصر .

وما كان يَوَدُّ طالوت ، أن يعود داود ،وقد أعاد مجدًا إلى مجد ، فعظم فى أعين القوم ، وأسَرَ قلوبهم ، واستحوذ على مشاعرهم ، ورشَّحوه للمُلك عليهم .

* * *

ويزداد داود تمكينًا وتعزيزًا ، ويزيده الله علمًا ونورًا ؛ وحكمة وتدبيرًا ، وهيبةً وجلالاً ،حتى تأجَّجت نارُ الغيرة فى صدر حَمِيه طالوت ، فلا وَدّ ولا محبَّة ولا صداقَةَ ولا صبرَ على البقاء معه ،فأيُّهما لابد أن يختفى .

وما تَهُونُ على طالوت نفسه أن تختفى ، وأن يترك مُلكه لشابٍّ مهْما كان زوجًا لابنته ، ومهما كان زعيمًا فى أمته ، فنفسُه ومُلكه قبلَ الزعامةِ والمصاهرة ، ومِنْ بعدِه الطوفان .

ولم يبق إلا الغَدْرُ والخيانة ، ووسوسةُ إبليس تخيِّم على قلب الرجلِ الصالح طالوت ، فأتَمَر بداود وأرْهف سيفَه ، وخرج فى جماعةٍ من الحمقَى حوله ، إلى الخلاء يفكرون ويُدبِّرون .

* * *

وعينُ العناية الإلهية ، لا تأخُذها سِنَةٌ ولا نوم ، ونفسُ داود صافيةٌ طاهرة ، تُحسُّ وتعلم ، ويُلْهمها الله فتُلْهَمُ ، ويدرك أن القلوب تصدَّعت ، وأن حبالَ الوُد تقطعت ، وأن ثعابين الغيرة شالَت رأسها وفَحَّت ، وأن القوم فى طلَبِه يفكرون ويدبِّرون .

فاتجه إلى الله يستعينه ، ويسأله الرعاية ، وأن يعينه على الغادرين ، فألقى الله عليهم النوم ، فراحوا وهم فى مجلسهم فى سُباتٍ عميق .

ومرَّ بهم داود ، فاستلَّ منهم سيوفهم وحرابهم ، وتولى عنهم ، وما ردَّه عن قتلهم إلا إيمانه وخوفُه من الله .

* * *

وأرسل إليهم سيوفهم ، وأوضح فضلَه وعفوَه ،وأنه وهَبَ لهم حياتهم ، فاعترفوا بذنبهم ، واستغفروا ربَّهم ، وتخلَّو عن مُلكِهم ، وارتضوه ملكًا عليهم .

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة الآية ٢٥١)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(سبأ الآيتان ١٠/١١)

وقال تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ ﴾

(الأنبياء الآيتان ٧٩/٨٠)

وقال سبحانه :

﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾

(الإسراء الآية ٥٥)

وقال سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

(ص الآية ٣٠)

* * *

نِعَمٌ كثيرة ، فالجبال تُؤوِّب معه ، وتردِّد تسبيحه لله ، كلما رأى قدرة الله فيها ، وكلما اقشعرَّ بدنُه من جَبَروتِ الله ، وأغرقَ في تأمُّلاته وسَبحَ في رَهَبُوت رب العالمين . وكلما سَرَح بفكره ، وكيف نصبَ الله هذه الجبالَ وأرساها ، وجعلها أوتادًا في الأرض ،وأسكن فيها العقبان والصقور والنسور وهيأها مكامِنَ للوحوش ، ومغَاوِر للعُبَّاد ، ومحاريب للزهاد .ومن ورائها تبرز الشمس ، ومن بين يديها يزهو القمر وعلى قممها تتسمَّر النجوم في صفحة السماءِ ، والجبالُ تردُّ صدى صوته كلما جأر بذكر الله ، فهي تؤوب معه وتُسمعُه نفسه ، فهي تصلي معه ، وتشاركه في تسبيحه .

* * *

والطيرُ تحاكي صوته ، وتُنشد ترانيمه ، وتُلحن مزاميره ، وتؤنسه في محرابه وتحط على بابه ، كأنها من حُجَّابه ، نَشوَانَةٌ في صحبته ، أليفة في وُدِّهِ ومحبته .

والجبال تبوح لداود بسرّ كنوزها ، وتبذل له من معادِنها ، والطير تأتيه بأحطابها ، فيوقد النار ، ويَصْهرَ المعدن ، ويصنع الدروع ، وألبسة الحرب .

صنعةٌ علَّمه الله إياها ، وأغناه منها ، وفضَّله بها ، وجعلها حصناً للناس ، من بأس الناس ، وياليتهم يشكرون !

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

(الأنبياء الآية ٨٠)

* * *

وأنزل عليه ترانيم ، يُلَحِّنها بمزماره ، فتطربُ القوم ، وتُلِين ما جَمَدَ من قلوبهم ،وتسيل ما جفَّ من عوطفهم ،وترقّق ما غلُظ من طباعهم ، فيَستميلهم إلى دينه .

وكانت مزامير داود ، أقبَاسًا من نور ، وألحانًا من هِداية ،وأشعةً من معرفة ، وكانت كتابَ الله إليه ، ونعمتَه عليه ، ومنهجه في هداية قومه .

* * *

ووهب الله لداود أولادًا ، وكانوا كثيرين ، وجمَّع الله كل ما يُرجَى منهم من خير ، فى ولده سليمان ، فكان نبيًّا ورسولاً ،ومَلِكًا كريمًا . نعم العبد من عباد الله الصالحين .

نعمُ الإله على العباد كثيرة وأجَلُّهـــن نجابةُ الأولاد

وهب الله لداود القوة القوية التى صرع بها جالوت ، وحلَّ بها أعزَّ منزلةٍ فى قلب حَميه طالوت ، ووهب له العِصمة فحفِظته أن يَزِلَّ أو يثور على مَنْ ائتمروا به ، بقيادة طالوت . ووهب له السَّماحة ، وحب السَّلام ، والعفو الأبيض ، فأعاد إليهم السلاح الذى أعدُّوه لقتله .

* * *

أوَكُلُّ هذا ياداود ، وتميلُ نفسك ، وتمتدُّ عينك ، إلى فتاةٍ فاتنةٍ ، مخطوبة لشابٍ مجاهد محارب ، غائبٍ فى الميدان ، فتخطُبها إلى أهلها ، فيتورَّطون معَك ، ويزوِّجونها منك ، وتسعد بها ، ويشقَى خطيبُها ، ويُهلِك نفسه ، ويكظم غيظه ، ويسأل الله فيك ، ويستعْديه عليك .

ويبعث الله اثنين من ملائكته ، فى صورة أخوين مختصمين ، ويتسوَّران عليك مِحرابك يَختصِمان إليك ، ويَعرضان قضيتَهما عليك ، فتستبشع التعدى ، وتحكم على المعتدى ، وتهمُّ بالقصاص منه ، فيردُّ عليك القضية ، ويُجَسِّم لك الخطيئة ، ثم تلتفت فلا تراهما ، فيرجُف فؤادك ويهتزُّ بالقُشَعريرةِ جِسمُك ، وتؤوب إلى ربك ، وتستغفر من ذنبك وتتوب ، فيتوب الله عليك ! ..

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ

(ص ١٧-٢٠)

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾

(ص الآية ٢١-٢٣)

قال داود

﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(ص الآية ٢٤)

* * *

يالُطْفَ الله ، تؤدِّب الأنبياءَ ، وتُربى الأوْلياءَ ، وتأخُذُ الأقوياءَ ، وتَنتَصِفُ منهم للضعفاءِ ! ..

حتى أنتَ يانبيَّ الله داود ، يامَنْ مَكَّن الله لك فى الأرضِ والسماء ، ورفعك منزلةً علياءَ ، حتى أنتَ لا تنجو من القضاء ، ولا تَمْرُق بهَفْوَةٍ إلاَّ بعتابٍ وجَزَاءٍ ؟ ! ..

* * *

وأيْنَ نحنُ مِن هؤلاءِ الأنبياءِ ؟ لنا هَفْوة وهَفَوَات ، وخَطَايَا وسَيِّئات ، وجَحُود وكُفْران ، وفُسُوق وعِصيان ، وتُحْصى علينا ملائكةُ الدَّيَّان ، ونحن فى جُرأةٍ جريئةٍ نقولَ يارحيمُ يارحمن ..

* * *

ويقول ربنا سبحانه

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

(ص الآية ٢٥)

ولكن بعد أن استغفر ربه ، وخَرَّ راكعًا وأناب ..

* * *

وحكومةٌ أُخرى ياداود تُعْرضُ عليك ، تلك القضيةُ التى عُرِضَت عليك وعلى ولدِك سليمان ، وكنتما قاضيَيْن مجتمعين . وقضَيتُما بحكمَين مختلفين ، فأى منكما أخطأ ، وأىٌّ أصاب ؟ أم كنتما على حقّ وهدى فيما تحكمان ، وإنما لكلٍ منكما نظرٌ وشأن ..

* * *

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

(الأنبياء الآيات ٧٩/٧٨)

* * *

المدَّعى بالحق فى القضية ، جماعةٌ لهم حدائقُ من أعناب .

والمدَّعى عليهم بالخسارة والتعويض ، ناسٌ لهم أغنام ، تركوها من غير حُرَّاس ولا رِعَاء ، فنزلَتْ فى الحدائق ، فأكلتْ منها ، وأتلفتْ ثمرَها ..

واحتكم المدَّعون ، والمدَّعى عليهم ، إلى محكمةِ داود وسليمان ..

فقضى داود ، بتسليم الأغنام لصاحب الحديقة ، تعويضًا للتلف ، قضاءً بشريعة يعقوب أبى يوسف « المُتلِفُ يُؤخَذ بما أتلف

﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ (يوسف الآية ٧٥)

وقضى سليمان ، بأن تسلَّم الأغنام إلى أصحاب الحديقة ، ينتفِعُون بألبانِها وأولادِهَا وأشعارها ، وأن تُسلم الحديقة إلى أصحاب الغنم ، يَرمُونَها ، ويتعهَّدونها حتى تعود إلى ما كانتْ ، ثم يترادَّانِ ، فيتسلَّمُ كلُّ صاحب حاجةٍ حاجته ..

على مبدأ : من أتلف شيئًا فعليه إصلاحه ..

فأيكُما كان أعْدل ؟ وأيكما كان أرْحم ؟ ..

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

(الأنبياء الآية ٧٩)

* * *